

المحاضرة الأولى

مفاهيم تأسيسية (المذهب، الاتجاه، المدرسة النحوية)

مقدمة:

لا يختلف اثنان في كون النحو عماد اللغة العربية وذروة سنامها، واهتم بالنحو العربي العرب وغيرهم فكتب عنه الكثير، وألفت فيه جبال من الكتب، إلى درجة القول: لم يهتم قوم بلغته كما اهتم العرب بلغتهم قديما، ولعل هذا الاهتمام كان مرتبطا بكتاب الله عز وجل، فالدافع الأول الذي جعل طائفة من العلماء يضبطون قواعد النحو العربي هو ظهور اللحن في القرآن الكريم واللغة العربية. فبدأ التأليف في هذا العلم وكثرت الآراء مما دفع بالباحث العربي إلى إطلاق مصطلح المدارس النحوية.

إن مقياس المدارس النحوية هو نقلة نوعية من العموم إلى الخصوص ومن الرأي المنفرد إلى الآراء المتعددة، لأن دراسة هذا المقياس ومحتواه يبين لنا الكيفية التي كان يعمل بها نحاة العربية، باختلاف مناطقهم ومذاهبهم وآرائهم، ولعل هذه المحاضرة هو مدخل عام لهذا المقياس والمعنونة: مفاهيم تأسيسية (المذهب والاتجاه والمدرسة النحوية)، وفيها سنجيب عن أسئلة قد تتبادر إلى ذهن الطالب فما الذي نعنيه بالمذهب، والاتجاه والمدرسة، هل تحمل هذه المصطلحات دلالة واحدة أو دلالات مختلفة وأين مواضع التوافق والاختلاف بين المصطلحات الثلاث، وهل شهد النحو العربي قديما مصطلح المدرسة، ومن أين أخذ مصطلح المذهب والاتجاه، وهذا ما سنجيب عنه في محتوى هذه المحاضرة.

في البداية لابد أن نشير إلى شيء مهم وهو الاختلاف الذي نلمسه عند الباحثين العرب المحدثين، حول مصطلح المدارس النحوية فبين إثباته ورفضه، انبثقت ثلاثة آراء هي على هذا النحو:

* **الرأي الأول:** ينكر وجود المدارس النحوية، وإنما يقول بوجود تجمعات جغرافية، ولا وجود لمدرسة مستقلة بآرائها وأفكارها وأساليبها الخاصة بها، لأن هذه الجماعات تطبق أصولا واحدة في النحو العربي، فالاختلاف في الفروع لا في الأصول، ومن الباحثين الذين يتبنون هذا الرأي سعيد الأفغاني وعلي أبو المكارم.

* **الرأي الثاني:** يقر بوجود مدرسة نحوية واحدة فقط وهي مدرسة البصرة، وإنكار مدرسة الكوفة، ومن قال بهذا القول إبراهيم السامرائي.

* **الرأي الثالث:** يقول بوجود مدرستين بصرية وكوفية، والتردد في وجود مدرسة بغدادية، ومثل هذا الرأي مهدي المخزومي، ويبدو أنه تابع الزبيدي في طبقاته حيث نظم أفراد المدرسة البغدادية مع علماء البصرة والكوفة، لكن وفق انتخاب الآراء.

1- المذهب في اللغة والاصطلاح:

أ - لغة: ورد في معاجم اللغة العربية أن المذهب مصدر ميمي، يطلق على الطريق ومكان الذهاب وزمانه، والجمع مذاهب، وذهب به وأذهبه غيره: أزاله والمذهب المعتقد الذي يذهب إليه، والمذهب طريقة، قصد، رأي، وجهة نظر، وما يدري لفلان مذهب: رأي ثابت وهو عند العلماء مجموعة من الآراء والنظريات العلمية والفلسفية ارتبط بعضها ببعض ارتباطاً يجعلها وحدة منسقة.

والمذاهب كثيرة منها المذهب المادي الذي يعترف بالمادة فقط، ومذهب الاحتمال الذي يرجح رأياً على آخر، ومذهب المنفعة الذي يرى أن جميع الأفعال ينبغي أن توجه للمنفعة العامة، وأما مذهب الديمقراطية يعطي فرصاً متساوية لجميع أفراد المجتمع، ومذهب الجبر الذي يرى أصحابه أن الإنسان غير مخير بل مجبر في أفعاله، ومذهب الدّادية التي يرى في مبادئه ثورة على التقاليد والدعوة إلى الحرية المطلقة.

وأما مذاهب الإسلام فهي أربعة: المذهب المالكي والشافعي، والحنفي والحنبلي، والمذهب هو مجموعة من الآراء والمعتقدات في مجال ديني أو اجتماعي أو فلسفي.

ب - اصطلاحاً: المذهب عند نحاة العربية مصطلح فقهي على غرار بعض المصطلحات الأخرى كأصول النحو والسماع اللغوي، والقياس النحوي، وكذلك المذهب فقد أخذته النحاة عن الأصوليين، وأصبح يعبر عن مجموعة مبادئ وآراء متصلة ومنسقة لمفكر ما أو جماعة ما.

والتعريف الدقيق للمذهب النحوي أنه طائفة من أولي العلم الواحد تتبنى مذهباً نحوياً، وتقول برأي نحوي مشترك وتجمعهم وحدة أصوله ومناهج البحث فيه، وإن تعددت أوطانهم واختلفت أجناسهم ومهما تنوعت شخصياتهم وتباعدت آراؤهم في الفروع.

ج - مقومات المذهب: ينبغي أن تتوفر مجموعة من المبادئ والشروط في المذهب عموماً وهي على هذا النحو:

* **الخصوصية:** أي وجود تفرد في الرؤية يتخذها صاحب المذهب، ويتميز بها عن غيره من المذاهب.

* **الوحدة:** أي انتظام مجموعة من الأفكار في مبدأ واحد، فلا يمكن اعتبار مجموعة من الأفكار على أهميتها وكثرتها مذهباً إذا لم تتوحد في مبدأ واحد يحتوي هذه الأفكار.

* **التكاملية:** تكون الرؤية إلى موضوع معين من جميع الجوانب التي تتطلبها المذهب الفكري.

* **الكفاية:** أن تكون المبادئ الأساسية للمذهب كافية لبنى عليها المذهب.

* **الإيديولوجية:** يعد مقوم الإيديولوجية جزءاً من مكونات المذهب، فهي البنية التي يقوم عليها فكر اللغوي أو المفكر، فلا يوجد فكر أو فلسفة دون خلفية معرفية.

2 - الاتجاه في اللغة والاصطلاح:

أ - لغة: اتجه إليه قصده وأقبل عليه، اتجه شمال البلاد أي توجه جهة الشمال، اتجه إليه بأصابع الاتهام: اتهمه، ومن معاني الكلمة مشى في اتجاه معاكس في وجهة معاكسة، اخترت اتجاهها علمياً أي مساراً علمياً.

ب - اصطلاحاً: هو ميل مستقر إلى حد كبير للاستجابة بطريقة متسقة لبعض الأشياء والمواقف والأفراد، أو مجموعة معينة من الأفراد وتتضمن الاتجاهات مجموعة من المشاعر والعواطف موجهة لأهداف معينة، فعندما نسأل طالباً عن اتجاهه ناحية أستاذه فأول ما يفكر فيه هو مدى تفضيله أو حبه لأستاذه ولا يتكون الاتجاه ولا يتم التعبير عنه إلا بحضور موضوعه. والاتجاه حالة داخلية لا يمكن ملاحظته بطريقة مباشرة، فهو بناء افتراضي يتجسد في الذاكرة طويلة المدى بين موضوع الاتجاه وتقييمه، ويتم الاستدلال عليه من آثاره على استجابات الفرد. وليس لجميع الاتجاهات نفس القوة، فبعضها أقل قوة من غيرها ومن ثم يمكن أن تكون قابلة للتغيير، فإن كان اتجاهك سلبياً نحو أستاذك نتيجة موقف معين تعرضت له معه فإنه من المحتمل أن يتغير هذا الاتجاه إذا ما زادت قوة علاقتك مع أستاذك في مواقف أخرى إيجابية والاتجاه لا يتكون ولا يتم التعبير عنه إلا بحضور موضوعه ومن ثم يمكن أن نستنتج ما يلي: - الاتجاه تنظيم مكتسب له صفة الاستمرار النسبي للمعتقدات التي يعتقدها الفرد نحو موضوع أو موقف وبهيئته للاستجابة، باستجابة تكون لها الأفضلية عنده.

ج - خصائص الاتجاه: يتضمن الاتجاه خصيصتين هما على هذا النحو:

* وجود قضية أو موضوع ينصب عليه الاتجاه، * الاتجاه يحمل حكماً تقييمياً، * الاتجاه باق نسبياً، * الاتجاه ينبئ بالسلوك.

3 - المدرسة في اللغة والاصطلاح:

أ - لغة: مصدر مشتق من الفعل درس، ودرس الشيء بمعنى جزّاه، ودُرِسَتْه الرياح درساً أي محتته إذا تكررت عليه عفته... ودرس الدرس يعني جزّاً الدرس ليسهل تعلمه على أجزاء، المدارس والدراسة: القراءة، والمدرسة جماعة من الفلاسفة والمفكرين أو الباحثين تعتنق مذهباً معيناً، أو تقول برأي مشترك ويقال هو من مدرسة فلان أي على رأيه ومذهبه وجمعه مدارس.

ب - اصطلاحاً: هي مجموعة من الآراء يتواضع عليها مجموعة من الناس تشكل رؤية ما لهم طريقة في التفكير مميزة، فينهجون منهجاً للوصول إلى هدف ما. وأما المدارس النحوية فهو مصطلح يشار به إلى اتجاهات ظهرت في دراسة النحو العربي اختلفت في مناهجها في بعض المسائل النحوية الفرعية، ونسب كل اتجاه منها إلى إقليدس عربي معين، فكانت هناك مدرسة الكوفة والبصرة وبغداد. وأما في العصر الحديث فإطلاق اسم مدرسة كان على المذهب أو على أهل الأمصار، لكن بعضهم لم يطلق على تلك المدارس اسم مدرسة بحكم أن تلك المدارس ترمي إلى هدف واحد وهو النحو العربي بثوابت كثيرة ومشتركة فيما بينهم، وكان اختلافهم قليلاً في بعض الفروع لذلك أطلقوا عليها اسم المذاهب مذهب البصرة ومذهب الكوفة، وفضل بعض الباحثين تسمية تلك المذاهب باسم المدرسة النحوية لا سيما علماء العصر الحديث بسبب الخلاف النحوي وقد خلا التراث العربي القديم من مصطلح المدرسة.

ومن العلماء الذين رتبوا علماء النحو حسب المناطق التي ينسبون إليها ابن سلام الجمحي 231 هـ الذي ترجم لأبي الأسود الدؤلي وعده مؤسس النحو العربي وليحيى بن يعمر ولعبد الله بن إسحاق الحضرمي ولأبي عمرو بن العلاء وانتهى بالخليل بن أحمد الفراهيدي، ولم ينسبهم إلى مدرسة وإنما عدّهم من أهل البصرة.

وجاء بعده ابن قتيبة 276 هـ الذي عقد في كتابه المعارف بحثاً لرواة الشعر وأصحاب الغريب والنحو وترجم بإيجاز لمعظم من اشتهر بهذه العلوم من البصريين والكوفيين.

وجاء بعدهما أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي 351 هـ؛ وألف كتاب مراتب النحويين ورتبه حسب الزمن، وبدأ بالبصريين لأن النحو في البصرة كان أقدم ظهوراً من الكوفة، وكانت أول إشارة إلى الكوفة عند ترجمته لأبي جعفر الرؤاسي.

وأما من استعمل كلمة مذهب هو أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي 379 هـ خلال ترجمته لأصحاب ثعلب فاستخدم عبارات مذهب البصريين الكوفيين، وجاء بعده ابن النديم 385 هـ واتبع التقسيم نفسه إلا أنه سمى نخاة بغداد من خلط المذهبين.

وجاء بعد ذلك أبو البركات الأنباري 577هـ فاتبع في كتابه نزهة الألباء في طبقات الأدباء التسلسل الزمني ولم يذكر كلمة مذهب إلا مع البغداديين.

واستعمل الدارسون المحدثون مصطلح المدرسة بمعنى المذهب النحوي متأثرين في ذلك بالغربيين الذين شاع عندهم هذا المصطلح بمفهوم المذهب ولا سيما في الدراسات الأدبية كما عرفت عندهم المدرسة الكلاسيكية في الأدب والفن. وكان من أوائل الذين استخدموا مصطلح المدرسة جوتولد فايل الذي سماها المدرسة البصرية والمدرسة الكوفية وتبعه في ذلك بروكلمان حيث قسم مذاهب النحو إلى ثلاثة أقسام والبصرة والكوفة والبغدادية وأول من استعمل مصطلح مدرسة من الباحثين العرب المحدثين هو مهدي المخزومي مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو وألف شوقي ضيف كتابا سماه المدارس النحوية وألف عبد الرحمان السيد كتابا سماه مدرسة البصرة النحوية.

المحاضرة الثانية

أسباب ظهور المدارس النحوية (السياسية، المعرفية، المذهبية)

لا يخفى على أحد أن النحو العربي شهد عدة مصطلحات في البدايات الأولى من ظهور الدرس اللغوي العربي، فالعلماء كانوا يؤلفون في علوم العربية، فيضمنون مختلف المسائل اللغوية في كتاب واحد، والدليل على هذا كتاب سيبويه النحوي فقد ضمن كتابه هذا موضوعات في النحو والصرف وفقه اللغة وغيرها من الموضوعات لأن موضوعات اللغة العربية لم تنفصل عن بعضها البعض، كما شهد النحو مصطلحات كثيرة منها العربية والكلام واللحن والنحو، لكن السؤال الذي ينبغي أن يطرح هنا ما الدوافع أو الأسباب التي أدت إلى ظهور ما يسمى المدارس النحوية وفي ما تتمثل هذه العوامل، لكن قبل الإجابة عن هذه الأسئلة ينبغي علينا الحديث عن مكان ودوافع نشأة النحو العربي.

1 - دوافع ومكان نشأة النحو العربي:

أ الدوافع: إن الدافع الكبير الذي جعل نخبة العربية يضعون قواعد النحو؛ هو ظهور اللحن في القرآن الكريم، وفي النص التالي إشارة إلى ذلك «قدم أعرابي في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال من يقرئني شيئاً مما أنزل الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم فأقرأه رجل سورة براءة فقال ﴿أَلَا اللَّهُ بِرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ بالجر فقال الأعرابي أو قد برء الله من رسوله؟ إن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه، فبلغ عمر عليه السلام مقالة الأعرابي فدعاه، فقال يا أعرابي أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أمير المؤمنين إني قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن فسألت من يقرئني فأقرأ في هذا سورة براءة فقال أن الله بريء من المشركين ورسوله، فقلت أوقد بريء الله تعالى من رسوله فأنا أبرأ منه فقال عمر رضي الله عنه: ليس هكذا يا أعرابي. فقال كيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال أن الله بريء من المشركين ورسوله بالرفع فقال الأعرابي وأنا والله أبرأ ممن بريء الله ورسوله منهم فأمر رضي الله عنه ألا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة وأمر أبا الأسود الدؤلي أن يضع النحو» ولم يقتصر اللحن عند عامة الناس بل استفحل حتى مس فصحاء والعرب وخطبائهم المفوهين فهذا الحجاج الذي أوتي شأواً كبيراً من الفصاحة يلحن في قوله تعالى: « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله» أحب بالرفع والأصل أن يكون بالنصب، إذن فالخطر الذي مس القرآن الكريم هو الذي دفع علماء العربية إلى إيجاد ضوابط لحماية القرآن الكريم بالدرجة الأولى، ثم اللغة العربية بالدرجة الثانية.

بدأت قواعد النحو بضبط المصحف الشريف أولا « فقد اتفق معظم الرواة على أن أبا الأسود نَقَطَ المصحف تنقيط إعراب، وتنقيط المصحف على هذا الوضع الذي ذكره الرواة يدل على وضوح ظواهر الإعراب في ذهن أبي الأسود حينما قال للكاتب: « خذ المصحف وصبغا يخالف المداد، فإذا فتحت شفتي فانقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتهما فاجعل النقطة في أسفله، فإن اتبعت شيئا من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين، فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره » هكذا بدأ البحث في قواعد النحو العربي، ليكون القرآن الكريم بعد ذلك الحجة الأولى في ضبط القاعدة النحوية « فهو أعلى درجات الفصاحة وخير ممثل للغة، ومن هنا لم نر أحدا وقف منه موقفا فيه أدنى شك أو ارتياب، بل وقفوا منه موقفا موحدًا وقبلوا كل ما جاء فيه » ويلى القرآن الكريم كلام العرب شعره ونثره، لكنه كان مرتبطا بفترة زمنية معينة وقبائل محددة عرفت فصاحة لغتها « لاقى الشعر اهتماما كبيرا من اللغويين واعتبروه الدعامة الأولى لهم حتى لقد تخصصت كلمة الشاهد فيما بعد وأصبحت مقصورة على الشعر فقط » وبعده الحديث النبوي الشريف وأول من احتج بالحديث النبوي الشريف هم نخاة الأندلس « وكان ابن مالك أكثر هؤلاء حماسة، إذ جعل من ظواهر الحديث النبوي اللغوية مادة يتعقب بها القدماء، ويتهم بقلة الاستقراء. » فقد أصبح الحديث النبوي الشريف المصدر الثالث من مصادر الاحتجاج اللغوي بعد القرآن وكلام العرب.

ب - مكان نشأة النحو العربي: لقد كانت البصرة السبابة إلى احتضان النحو العربي فقد ساعدتها الكثير من العوامل لتكون الموطن الأول لظهور النحو العربي وذلك للأسباب التالية:

* كان العراق ملجأ العجم والعرب قبل الفتوحات الإسلامية وبعدها، وتوفرت على أغلب شروط الحياة فيها فظهرت الحركة الفكرية اللغوية ومنها النحو العربي.

* كان العراق أكثر الأماكن تفشيا للحن في شبه الجزيرة العربية، نظرا للاختلاط الذي حدث بين الأعاجم والعرب.

* الخبرة في التأليف التي أوتيت للبصريين فقد احتضنوا النحو العربي زهاء قرن من الزمان، قبل أن تشتغل به الكوفة، لأن الكوفة كانت منشغلة أكثر بالقراءات القرآنية ورواية الشعر والأخبار. فالبصرة هي التي أسست للنحو العربي ثم الكوفة ثم بغداد. إذ يرى ابن النديم أن البصريين هم الأوائل في الدرس النحوي العربي لأن علم العربية عنهم أخذ ثم اشترك علماء البصرة والكوفة في النهوض بالنحو في عهد الخليل بن أحمد شيخ الطبقة الثانية من البصريين وأبي جعفر الرواسي شيخ الطبقة الأولى من الكوفيين حتى نضجت أصوله وكملت عناصره في مستهل العصر العباسي الأول.

2 - عوامل سبق مدرسة البصرة في التأليف النحوي:

أ - العامل السياسي: كانت البصرة عثمانية أموية وكانت الكوفة علوية عباسية، وقد سكن علي بن أبي طالب الكوفة واتخذها مقرا لخلافته، إذ كان أهل الكوفة مطيعين له فدعوه إليهم في الوقت الذي شق فيه أهل البصرة عليه عصا الطاعة، ثم جاءت السيدة عائشة رضي الله عنها بالبصرة ومعها جيش طلحة والزبير مطالبين بئثار عثمان وقد كانت موقعة الجمل بين عائشة وعلي فكان ما كان. وسقطت الدولة الأموية وحلت الدولة العباسية ومن ثم تمسكت كل من البلدين بما تدين له فاستمرت البصرة هاشمية عثمانية والكوفة قرشية علوية ولما كانت مسألة التحكيم وكان الفائز فيها الأمويون كان طبيعيا أن يكون الاستقرار والهدوء للبصريين وأنصارهم في الوقت الذي كان فيه الكوفيون يضمرون الكراهية للبصريين وسرعان ما تغيرت الأوضاع وسقطت الدولة الأموية وحلت الدولة العباسية التي ظهرت في الكوفة فتراجعت شهرة البصرة في الفترة العباسية.

ب - الموقع الجغرافي: إذ إن الموقع الجغرافي للبصرة وبعدها عن أماكن الاختلاط بالبصرة تقع على طرف البادية فكانت أقرب المدن إلى العرب الأقحاح، مما يلي العراق فمكنهم ذلك من أخذ اللغة الفصيحة دون مشقة ودون التنقل إلى مناطق الفصاحة.

ج - العامل الثقافي: كان للعامل الثقافي الأثر البارز في سبق البصرة للاهتمام بالنحو إذ كانت تقام فيه مجالس العلم والمناظرة ويفد إليها الشعراء ورواتهم على نحو سوق عكاظ في الجاهلية يقصدها العلماء والأدباء والأشراف للمذاكرة والرواية والوقوف على الأخبار وكان اللغويون يأخذون عن أهلها ويدونون ما يسمعون ويأخذ عنهم النحويون ما يصحح قواعدهم، ولم تكن الكوفة في هذا المستوى إذ أن سكانها من الأعراب أقل عددا وفصاحة ممن كان في البصرة وإن كان منهم بنو أسد وغيرهم إلا أن معظمهم يمانيون وأهل اليمن عرف عنهم فساد لسانهم لمجاورتهم الحبشة واحتكاكهم بالهند ومخالطتهم التجار الذين يفدون إليهم من كل الأمصار.

إن الاتصال بالثقافات الأجنبية عند البصرة مكنهم من وضع العلوم إذ إن فكرهم كان أدق وأعمق من عقل الكوفة، ويمكن أن يرى ذلك في نشاط المباحث الدينية في البلدين فقد عنيت الكوفة بالفقه وعنت البصرة بعلم الكلام.

إضافة إلى دوافع أخرى كان بعضها قومي عربي، يرجع إلى أن العرب يعتزون بلغتهم اعتزازا شديدا جعلهم يخشون عليها من الفساد حين امتزجوا بالأعاجم، هذا ما جعلهم يحرصون على المحافظة عليها خوفا من الفناء والانصهار والدوبان في اللغات الأعجمية، إلى جانب ذلك كانت هناك بواعث اجتماعية ترجع إلى أن الشعوب المستعربة أحست بالحاجة الشديدة إلى العربية بإعرابها وتصريفها حتى تمثلها تمثلا مستقيما وتتقن النطق بأساليبها نطقا سليما.

د - الحاجة إلى النحو: أجمعت الحقائق أن القرآن الكريم كتاب معجز، فقد وجد أهل المدن والأمصار صعوبة في قراءة القرآن وفهمه وبخاصة أهل المدن والأمصار، لذلك دعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إعراب القرآن فقال أعربوا القرآن، وهذا عمر بن الخطاب في عهده أن أحد ولاته حينما كتب له كتابا قال له أن فتّع كاتبك سوطا. وقد وجد الأعاجم الداخلون في الإسلام أنفسهم يستعملون لغة غير لغتهم، فاضطروهم ذلك لتعلم اللغة العربية لديهم وديانهم، فكانوا بحاجة إلى نوع من العلم يسهل لهم طريق التعلم فسمحت هذه الحاجة إلى وضع علم النحو، وكان طبيعيا أن ينشأ ذلك في العراق لا في الحجاز ولا في الشام لأن الحجاز لم يكن في حاجة إلى قواعد يقيم به لسانه وأن موالي العراق أكثر رغبة من موالي الشام، ورغبة الفرس في تعلم العربية كانت أكبر من غيرهم.

3 - السليقة ودواعي نشأة النحو: اللغة العربية إلى زمن القرون المحيرية الأولى كانت فطرة في الإنسان العربي، لذلك فإن المصطلحات النحوية التي جاء بها النحاة لم يكونوا على دراية بها؛ لأنهم كانوا يحتكمون إلى سليقة ذات منهج دقيق، أساسه الذوق الرفيع والنطق السليم والوزن العربي الخالص، والروايات في ذلك كثيرة فهذا ابن جني سأل أحد الأعراب ممن يوثق في عربيته عن تصغير حباري فيجيبه حبرور، وذلك أن الحبرور في اللغة هو فرخ الحباري وأما التصغير الصربي حبير أو حبيرى فهو مما لا يخطر ببال الأعرابي. وعندما سأله كيف تجمع محرجمنا أجب فرقه حتى أجمعه، ويتضح ذلك أيضا من قول الأصمعي لأعرابي أهتمز إسرائيل قال: إني لرجل سوء، قلت أتجر فلسطين قال إني لرجل قوي، فهذا الأعرابي لم يفهم من الهمز إلا العيب والشتم لذى أبا أن يكون عيبا ولم يفهم من الجر إلا السحب أما الهمز فهو النطق بالهمز فقد قيل عن النحاة:

ولست بنحوي يلوك لسانه ولكن سليقي يقول فيعرب

فالخلاصة التي نخرج بها من هذه المحاضرة أن النحو العربي نشأ في العراق وبالتحديد في البصرة، والدافع في ذلك كان الخوف من اللحن الذي ظهر في القرآن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأما عن العوامل التي جعلت المدارس النحوية تظهر مجتمعة في العامل الجغرافي إذ إن الموقع الجغرافي للبصرة جعلها مكانا لأخذ اللغة دون مشقة على خلاف الكوفة وبغداد، والعامل السياسي الذي منح للبصرة الاستقرار بعد حادثة الجمل فدفعها إلى التأليف في النحو والاهتمام بمختلف العلوم، وكذا العامل الثقافي إذ كانت تحوي سوق المريد وهو بمثابة سوق عكاظ في الجاهلية يقصدها الكثير، كما أن اهتمام البصرة بالعربية وعلم الكلام في حين كانت الكوفة تهتم بالقراءات القرآنية والشعر، وعامل آخر هو الحاجة إلى النحو إذ إن الأعراب الذين دخلوا الإسلام لا يعرفون العربية بالتالي كان ولا بد من وضع علم تقام به الألسن.

المحاضرة الثالثة

مصادر المدارس النحوية

تعددت مصادر النحوي في استنباط القاعدة النحوية، غير أن المتفق عليه أن مصادر المدارس النحوية مقسمة إلى المدونة اللغوية المتمثلة في القرآن الكريم وقراءاته القرآنية، وكلام العرب شعره ونثره والحديث النبوي الشريف، وكذا البعد الزمني والبعد المكاني.

أ- المدونة اللغوية:

1 القرآن الكريم: يعد القرآن الكريم المصدر الأول من مصادر البحث اللغوي والنحوي عند علماء العربية، لذا وقفوا منه موقفاً موحداً فاستشهدوا به وقبلوا كل ما جاء فيه ولا يعرف أحد من اللغويين قد تعرض لشيء مما أثبت في المصحف بالنقد والتخطئة، ويعتبر حجة عند جميع طبقات النحاة، والمراد بالقرآن النص القرآني المدون في المصحف وهو غير القراءات يقول الزركشي في البرهان القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للبيان والإعجاز والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتابة الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتثقيل وغيرهما ومن المتعارف عليه أيضاً أن القرآن نزل بلغة قريش هذا لا يعني أننا نهمش اللهجات الأخرى إلا أن الغالب في لغة القرآن أنها لغة القرشيين.

2 القراءات القرآنية: وهي الوجوه المختلفة التي سمح النبي صلى الله عليه وسلم بقراءة نص المصحف بها قصداً للتيسير، والتي جاءت وفقاً للهجة من اللهجات العربية يقول الجزري في كتابه: أما سبب وروده على سبعة أحرف فللتخفيف على هذه الأمة وإرادة اليسر بها والتهوين عليها وتوسعة ورحمة وخصوصية لفضلها وإجابة لقصد نبينا حيث أتاه جبريل عليه السلام فقال له: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف، فقال صلى الله عليه وسلم، أسأل الله معافاته ومعونته إن أمتي لا تطيق ذلك ولم يزل يردد المسألة حتى بلغ سبعة أحرف. والحقيقة أن العلماء نظروا إلى القراءات من وجهين:

- الوجه الأول متمثل في موقف القراء والأصوليين.

- الوجه الثاني وهو المتمثل في موقف النحاة واللغويين

أما القراء والأصوليون فقد اشترطوا في القراءة القرآنية مجموعة من الشروط وهي على هذا النحو:

- موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً. - موافقة العربية ولو بوجه. - صحة سندها واتصال روايتها.

أما اللغويون والنحاة فقد وضعوا شرطا واحدا فقط وهو صحة الرواية عن القارئ العدل ولو كان فردا وسواء رويت القراءة بطريقة التواتر أم الأحاد وسواء كانت سبعية أم عشرية أم شاذة.

ولقد كان موقف النحاة من النص القرآني موحدا فالجميع يجعلونه حجة في الاحتجاج اللغوي والنحو دون استثناء، وأما ما يتعلق بالقراءات القرآنية فقد اختلف النحاة في الاحتجاج بها فالبصريون الذين لهم السبق في الدراسات اللغوية عموما، يتحفظون قليلا من القراءات التي طعنوا في بعضها وأخضعوها لقواعد أقيستهم، فما وافق ذلك اعتمدوه وأخذوا به وما خالفه طعنوا فيه ورفضوه واعتبروه شاذا لا يقاس عليه وقد عمدوا إلى تأويل ما لم يتوافق مع قواعدهم وهم بذلك يقدمون القياس والقاعدة على القراءة القرآنية.

وما يمكن ملاحظته على البصريين أنهم في بعض استشهاداتهم كانوا يأخذون بالأشعار المجهولة ويقدمونها على قراءة مشهورة من ذلك أن المبرد ردد قراءة حمزة في قوله تعالى اتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام النساء 1 حيث عطف على الضمير المخفوض دون إعادة الخافض الذي هو الباء فقال لا تحل القراءة بها هذا لا يعني أن المبرد لم يستشهد بالقرآن الكريم كله بل استدل بنحو 500 شاهد قرآني. وأما الكوفيون فكانوا أقل تخطئة للقراءات وأكثر قبولا لها من البصريين، ولكن ذلك لا يرجع في نظرنا إلى احترامهم للقراءات وحسن تقبلهم لها وإنما يرجع إلى ما عرفوا به من توسع في أصول اللغة وقياس على القليل واعتدادهم بالمثال الواحد.

3 - كلام العرب شعره ونثره:

• **الشعر:** تعتبر الشواهد الشعرية أكثر عددا من غيرها فقد لاقى الشعر اهتماما كبيرا من اللغويين واعتبروه الدعامة الأولى لهم حتى تخصصت كلمة الشاهد فيما بعد وأصبحت مقصورة على الشعر فقط، فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها ومستنبت آدابها ومستودع علومها وبه حفظت الأنساب وعرفت المآثر وتعلمت اللغة والأشعار التي يحتج بها جاهلية وإسلامية، وعلى هذا فقد قسم اللغويون الشعراء إلى طبقات أربع هي على هذا النحو:

الطبقة الأولى: وهم الشعراء الجاهليون وهم الذين عاشوا قبل الإسلام.

الطبقة الثانية: المخضرمون وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام.

الطبقة الثالثة: وهم الشعراء الإسلاميون الذين كانوا في صدر الإسلام كجرير والفرزدق وآخرهم ابن هرمة.

الطبقة الرابعة: المولدون وهم من بعدهم إلى زماننا كبشار بن برد وأبي نواس.

فالطبقتان الأوليتان يحتج بشعرهما إجماعا وإن كان من بينهما بعض الشعراء الذين طعن فيهم كعدي بن زيد، وأما الطبقة الثالثة فالصحيح جواز الاستشهاد بشعرها وكان عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي يلحنون الفرزدق والكميت وابن الرمة، على خلاف الطبقة الرابعة فالصحيح أنه لا يستشهد بكلامها مطلقا ومنهم من أباح الاستشهاد بكلام من يوثق بفصاحتهم ومن هؤلاء الزمخشري الذي كان يرى الاحتجاج بشعر أبي تمام. واتخذ مجمع اللغة العربية في القاهرة قرارا مفاده أن العرب الذين يوثق بعريتهم ويستشهد بكلامهم هم عرب الأمصار إلى نهاية القرن الثاني للهجرة وأهل البدو من جزيرة العرب إلى آخر القرن الرابع الهجري.

• النشر: تشمل الشواهد النثرية نوعين من المادة اللغوية:

أحدهما: ما جاء على شكل خطبة أو وصية أو مثل أو حكمة أو نادرة وهذا يعد من آداب العرب الهامة، ويأخذ في الاستشهاد مكانه في الشعر وشروطه.

وآخرهما: ما نقل عن بعض الأعراب ومن يستشهد بكلامهم في حديثهم العادي دون أن يتحقق له من التألق والذيق مثل ما تحقق للأول وقد وضع اللغويون شروطا تشمل الزمان والمكان بالنسبة لهذا النوع من المادة.

4 - الحديث النبوي الشريف: يهتم النحاة من حديث النبي صلى الله عليه وسلم ما كان قولاً، لأن القول والاستشهاد به هو موضوع النحو ومرجع الأحكام والاستدلال به، واختلف أهل اللغة والنحو حول الشاهد من الحديث النبوي بين مجيز ومنكر فمن المجيزين بعض من الكوفيين وكثير من أهل المذهب المغاربي والأندلسي كابن خروف وابن مالك وغيرهما، ومن المنكرين ابن الضائع وأبي حيان الأندلسي وكذلك السيوطي وهناك طرف متحفظ يميز من الحديث ما صح لفظه كما فعل أبو إسحاق الشاطبي، وبعض البصريين والكوفيين، ومن الذين لا يحتجون بالحديث يستندون على أن بعض أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم رويت بالمعنى بقول أبو حيان إنما ذكر العلماء ذلك لعدم وثوقهم أن ذلك لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم إذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى القرآن الكريم في إثبات القواعد الكلية.

غير أن ما استندوا عليه واهي وضعيف باعتبار أن الحديث النبوي الشريف تم تدوين معظمه قبل نهاية عصر الاحتجاج، ثم إنهم قد احتجوا بأن معظم رواة الحديث أعاجم، وكذلك فإن معظم علماء اللغة أعاجم: سيبويه والكسائي والفراء وغيرهم كثير، ثم إن كثيرين احتجوا بمرويات حماد الراوية وكان وضاعاً لحائناً وبالرغم من ذلك، فإن كثيراً من العلماء في اللغة والنحو قد استشهدوا بالحديث من بينهم سيبويه والمبرد وابن الأنباري في انصافه وحتى السيوطي الذي اعتمد على أكثر من 155 حديثاً.

ب - البعد الزمني: أما من ناحية الزمان فقد حدّدوا الفترة التي يستشهد بها بآخر القرن الثاني للهجرة بالنسبة لعرب الأمصار أو الحاضرة أو أهل المدن التي ظهر فيها الاختلاط واللحن مبكراً، وآخر القرن الرابع للهجرة عند أهل البادية أي الأماكن التي لم تشهد اللحن مبكراً، بمعنى أن ما قيل من الشعر والنثر والأمثال والحكم والخطب أواخر القرن الثاني للهجرة يحتج به عند أهل الحاضرة، وأن ما قيل من كلام قبل نهاية القرن الرابع للهجرة في البادية يعد حجة اللغوي والنحوي.

ج - البعد المكاني: أول من روى لنا قائمة محددة بالقبائل التي أخذت عنها اللغة الفارابي في كتابه الألفاظ والحروف وهذا النص مقتبس من كتاب المزهر في علوم اللغة الجزء الأول الصفحة 211 / 212 وهذا هو النص: كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عمّا في النفس والذين نقلت عنهم اللغة العربية وبهم اقتدي وعندهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس، تميم، وأسد فإن هؤلاء هم الذين عنهم أخذ أكثر ما أخذ ومعظمه وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم.

المحاضرة الرابعة

مناهج المدارس النحوية العربية القديمة المنهج والتخريج

مما لا شك فيه أن هذه المدارس النحوية منذ نشأتها، كانت تصبو إلى تميز كل واحدة عن الأخرى من خلال مناهج الدراسة، وجمع الشواهد اللغوية وصياغة المصطلح العلمي، وتقعيد القواعد النحوية ومع كل هذا هناك رابط مشترك لا يمكن أن تنفرد به مدرسة عن أخرى هو رابط الدرس النحوي والبحث في موضوعاته، ولهذا السبب يمكن لنا أن نقف على المناهج المشتركة بين هذه المدارس التي اعتمدت من قبل الدارسين، فكان الخلاف من ناحية الاستشهاد بالكلام والأشعار في النحو، على أن الاستشهاد يتسع ويضيق بحسب مدارس اللغة والنحو التي نشأت في الحواضر الإسلامية، فالمدرسة البصرية شددت في رواية الأشعار والأمثال والخطب، واشتدوا في الشواهد المعتمدة لوضع القواعد أن تكون فصيحة متداولة وكثيرة، وحينما يواجهون بعض النصوص التي تخالف قواعدهم يصفونها بالشذوذ ويتأولونها حتى توافق قواعدهم. أما نخبة مدرسة الكوفة فقد اتسعت في الرواية عن جميع العرب بدوا وحضرا، واعتدوا بأقوال وأشعار ممن سكنوا حواضر العراق، كما اعتدوا بالأشعار والأقوال الشاذة التي سمعوها من فصحاء العرب والتي وصفها البصريون بالشذوذ. وأما نخبة المدرسة البغدادية فإنهم توسعوا في الأخذ والاستشهاد بأشعار الطبقة الرابعة، فقد استشهد الزمخشري بشعر أبي تمام، فقد قال وإن كان محدثا لا يستشهد بشعره في اللغة، فهو من علماء العربية، فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه. ومن أهم مظاهر الاختلاف ما نجده في المصطلحات؛ فتعتمد الكوفيون استخدام مصطلحات لتكون لهم مدرسة نحوية مستقلة، إلا أن طريقة العمل والمعنى التي يريدونها الكوفيون بهذه المصطلحات لا تختلف في بعض الأحيان عما نجده عند البصريين. ومن ذلك اصطلاح التقريب الخاص باسم الإشارة هذا، نحو هذا زيد قائما فجعلوه من أخوات كان، أي ترفع الاسم وتنصب الخبر، بينما يعرب البصريون قائما حالا ويجعلون ما قبلها مبتدأ وخبرا. وكانوا لا يطلقون كلمة المفعول إلا على المفعول به، أما بقية المفاعيل فهي المفعول فيه والمفعول المطلق والمفعول لأجله والمفعول معه، فكانوا يسمونها أشباه مفاعيل وسموا الظرف الصفة والمحل وسموا لا النافية للجنس في نحو: لا رجل في الدار باسم لا التبرئة، والصفة في مثل محمد الشاعر أقدم باسم النعت، وسموا حروف النفي بحروف الجحد أي الإنكار كما سموا حروف الزيادة مثل إن في قولك ما إن أحد رأيته باسم حروف الصلة والحشو، وسموا المصروف والممنوع من الصرف باسم ما يجري وما لا يجري، وسموا لام الابتداء في مثل لزيد شاعر لام القسم زاعمين أن الجملة جواب لقسم مقدر. وأهم الخصائص المتعلقة بمناهج المدارس النحوية فيما يلي:

1 السماع: السماع هو الأخذ المباشر للمادة اللغوية عن الناطقين بها" وشرح هذه المقولة يعني أن السماع يقصد به أن اللغوي قد قام بنفسه بعملية الجمع فسمع مباشرة من القبيلة التي يريد تأصيل اللغة منها، وأنه لم ينقل له شخص آخر هذه اللغة، ولقد اعتمد كل من البصريين والكوفيين استقراء اللغة المسموعة، فكما أخذ الخليل بن أحمد البصري اللغة سماعاً عن أهل البادية، فعل كذلك الكسائي الكوفي. ووجه الفرق بين سماع البصريين وسماع الكوفيين أن البصريين ينشدون في سماعهم الكثرة والتكرار ومعرفة القائل، في حين يعتمد الكوفيون في سماعهم على الترخيص والإباحة فقد يقبلون الشاهد الواحد، والمجهول القائل.

2 القياس: يعرف ابن الأنباري القياس فيقول: "حمل أصل على فرع بعلّة، وإجراء حكم الأصل على الفرع". ومعنى قول ابن الأنباري أن القياس عملية ذهنية يقوم بها دارس اللغة فيطلق حكم المسموع منها على الجديد المستحدث منها، كصوغ اسم الفاعل من كل فعل ثلاثي على وزن (فعل) شعر، شاعر فليس كل أسماء الفاعلين مسموعة من العرب الفصحاء، فجاز أن يقاس على ما سمع ولا غضاضة في ذلك يقول ابن جني: "ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب" فأول النحو كان قياساً فلقد قيل عن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي وهو من أوائل النحاة "أول من بعج النحو ومد القياس". ولقد كان القياس عند سيبويه كثيراً مناطه شيوع الاستعمال وكثرة الاطراد، ويقول في ذلك شوقي ضيف: "وطبيعي أن يكثر القياس في كتاب سيبويه كثرة مفرطة لأنه الأساس الذي يقوم عليه وضع القواعد النحوية والصرفية واطرادها هو يعتمد عنده في أكثر الأمر على الشائع في الاستعمال على السنة العرب". ورائد الكوفيين الكسائي كان عماده القياس، هذا ولا بد لك أن تعرف الاختلاف بين قياس البصريين وقياس الكوفيين، فالقياس عند البصريين يستند إلى دقة الملاحظة ونشدان الصحة والشمول، في حين كان الكوفيون متساهلين في أقيستهم فبنوها على الشاذ والنادر، فنتج عن ذلك أن قاموا على غير المسموع وأصروا أن يستنبطوا منه القاعدة.

3 التعليل: يقصد بالتعليل في النحو التفسير اللغوي للظواهر المستنبطة من كلام العرب، وهذه العلة مستنبطة استنباطاً من اللغة وليست بالضرورة واجبة وكما فسرنا هذا العالم أو ذاك، إنما هي نتيجة اجتهاد من النحاة للاستدلال على براعة الواضع العربي ودقته وفهمه للغة، يقول أبو القاسم الزجاجي عنها: "أقول أولاً إن علل النحو ليست موجبة وإنما مستنبطة أوضاعاً ومقاييس". والحديث عن التعليل النحوي واشتغال النحاة به منذ فجر الدراسات اللغوية، إذ إنّ التعليل كان درياً متبعاً من قبل النحاة منذ القدم مع اختلافهم فيه منهجاً وتحققاً. لقد كان الخليل بن أحمد شغوفاً بالتعليل، يود أن يدخله في كل ما يتعلق باللغة إيماناً منه بعبقريّة اللغة العربية وحكمة واضعيها، يقول شوقي ضيف: « وكان [أي الخليل] يسند دائماً ما يستنبطه من القواعد والأحكام بالعلل التي تصور دقته في فقه الأسرار اللغوية والتركيبية التي استقرت في دخائل العرب من قديم، ولما سئل الخليل عن العلة التي استنبطها من اللغة أهي من عند العرب قصدوها قصداً أم هي من عنده اخترعها اختراعاً، فقال ما نصه: « إنّ العرب نطقن على سجيتهن وطباعهن وعرفت مواقع كلامهن وقام في عقولهن علل، وإن لم ينقل عنها، واعتلت أنا بما عندي أنه علة لما

عللته منه...» ولم يكن سيبويه أقل اهتماما بالتعليل من الخليل بل إن سيبويه حينما يورد الحكم النحوي لا يرى مندوحة عن تعليله، ويؤكد شوقي ضيف ولوع سيبويه بالتعليل بل ويراه يعلل لما كان مطرداً من كلام العرب ولما لم يكن كذلك "وتكثر التعليقات في كتاب سيبويه كثرة مفرطة، سواءً للقواعد المطردة أو للأمثلة الشاذة ... بل يعلل أيضاً لما يخرج على تلك القواعد". وإذا تصفحنا كتاب (معاني القرآن) للفراء الكوفي فإننا نصادف كثيراً من التعليقات التي تصل إلى حد الغموض، وفي هذا الكتاب بالذات يفصح الفراء عن معارضته لآراء البصريين وتعليلاتهم.

4 الرواية: يختلف السماع عن الرواية، فالسماع هو أخذ النحوي اللغة من العرب مباشرة وأما الرواية فهي أخذ النحو اللغة بطريقة غير مباشرة، فلربما يأخذ اللغة عن نحوي غيره، أو يجد الرواية في مصنف من المصنفات، أو في أحد كتب النحو، كما يتجلى الفرق بين السماع والرواية في أن السماع محدود في الزمان بمعنى أن العالم يأخذ اللغة الراهنة في عصره، بيد أن الرواية تمتد زمنها في القدم كثيراً فقد يروي للنحوي في عصره لغة سبقت عصره بكثير. وأنت ترى تشابك المعنيين ببعضهما وفيما قدمناه لك كفاية لمعرفة الفرق، ويمكن القول هنا إن كل رواية سماع وليس كل سماع رواية، فالسماع كل ما نقل عن العرب مباشرة أو غير مباشرة وأما الرواية فهي النقل غير المباشر. تعامل البصريون مع الرواية كتعاملهم مع القياس من حيث التشدد في التدقيق والتحصيص، ولربما كان الأمر أكثر حدة في الرواية منه في القياس؛ لأن الرواية هي معين الشواهد التي يتحررها البصريون فلا يتسامحون البتة مع أدنى شك من وجوه النحل أو الوضع في الرواية. وكان ابن جني قد اتخذ الرواية ظهيراً على صحة آرائه فهو يروي عن سيبويه وعن الفارسي وغيرهما فيستشهد بالأشعار والقصص التي يحفظها، ولقد كان الكوفيون أكثر رواية من البصريين لأن الكوفيين يمتلكون مخزوناً شعرياً كبيراً الأمر الذي شغلهم عن النحو لزم من غير قصير، غير أن هذه الكثرة الكاثرة من الأشعار ليست في مستوى واحد من الصحة، فكثير منها مصنوع منحول أو منقول عن آخرين. فمن مناهج المدارس النحوية العربية القديمة إذن: السماع، القياس، التعليل والرواية ولقد عرفت شيئاً من اختلاف المدارس القديمة حول هذه المناهج... فسماع البصريين ليس كسماع الكوفيين. البصريون ينشدون الكثرة والتكرار ومعرفة القائل، والكوفيون يقوم سماعهم على الترخص والإباحة فقد يقبلون الشاهد الواحد والمجهول القائل. وأما القياس فلقد رأيناه عند البصريين مستنداً على دقة الملاحظة وتحري الصحة والشمول، في حين كان قياس الكوفيين يطبعه التساهل إذ بنوا قواعدهم على الشاذ والنادر.... وأما التعليل فلقد سجلنا ولوع كلا الفريقين به إلا أن تعليل البصريين كان صادراً عن اللغة في حد ذاتها فسروا به ما فهموه من علل العرب في كلامهم دون الخروج عن مجال اللغة وأما الكوفيون فقد كان تعليلهم مطبوعاً بالغموض أحياناً مثلما هو (معاني القرآن) للفراء وفيما يتعلق بالرواية فلقد الكوفيون أكثر رواية للشعر من البصريين.

المحاضرة الخامسة

المدارس النحوية في المشرق والمغرب العربيين

أثارت قضية المدارس النحوية جدلاً كبيراً في إثباتها من عدمه، وقد طرحت الكثير من الأسئلة، وتلك الأسئلة نذكرها فيما يلي: هل استعمل مصطلح المدارس النحوية قديماً؟ من هم أول من استعمل هذا المصطلح؟ هل هناك اتفاق على وجود هذه المدارس؟ ماهي أهم المدارس النحوية التي أجمع عليها المعترفون بوجود هذه المدارس النحوية؟ لم يستعمل الدارسون القدامى مصطلح مدرسة، ولم يعبروا بهذا المعنى إطلاقاً، ونجدهم إذا أرادوا التفريق بين النحاة يضيفونهم إلى أقطارهم، فيقولون أهل البصرة وأهل الكوفة، والمعروف أن لفظة (أهل) لا ترتبط بقريب معنى ولا بعيدة بلفظة مدرسة. أو يقولون: البصريون والكوفيون. وإذا ما تقدمنا في الزمن فإننا نجد لفظة (مذهب) قد استعملت عند ابن الأنباري صاحب (الإنصاف في مسائل الخلاف) وأن لفظة (مذهب) تقترب شيئاً من مصطلح مدرسة. وإذا تقدمنا عن زمن ابن الأنباري بقرنين، نجد الإمام الذهبي لم يستعمل لا لفظة (أهل) ولا (مذهب) ولا (مدرسة) إنما يصف من ترجم له من النحاة ببلداتهم أو أقطارهم التي عاشوا فيها فحينما يتكلم عن الخليل يقول: الإمام، صاحب العربية ومنشئ علم العروض أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري. ولما ترجم للكسائي الكوفي قال: الإمام شيخ القراءة والعربية أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن يهمن بن فيروز الأسدي مولاهم الكوفي الملقب بالكسائي. وأما مصطلح (مدرسة) فقد كان أول من استعمله المستشرقون في العصر الحديث، وتؤكد ذلك خديجة الحديثي: كان المعاصرون أول من استعمل كلمة (مدرسة) قال بروكلمان وقد قسم علماء العربية مذاهب النحو إلى ثلاث مدارس: البصريون والكوفيون ومن مزجوا بين المذهبين من علماء بغداد ويبدو أنه عني بـ: (مدرسة) مجموعة النحاة الذين كانوا ينسبون إلى بيئة نحوية واحدة. سنتطرق إلى مناقشة رأي آخر يتعلق بمدى اتفاق الدارسين العرب المعاصرين على وجود هذه المدارس أو عدم وجودها، إذ تذكر لنا المراجع أن هناك بعض المتحفظين على واقعية هذا المصطلح لأنهم يشككون في وجود هذه المدارس أصلاً، وستكون مناقشتنا لهذه المسألة بعرض رأي المنكرين لوجود هذه المدارس وتعزيزه بحججهم التي استدلو بها على ذلك، ثم بعرض المثبتين لوجودها مع حججهم على ذلك، ثم نحاول التوفيق بين هذين الرأيين.

أولاً: المنكرون للمدارس النحوية: لا بد أن نذكر أن منكري هذه المدارس النحوية يمكن تصنيفهم إلى ثلاثة اتجاهات:

- اتجاه لا يؤمن بوجود هذه المدارس إطلاقاً. - اتجاه ثانٍ يقرّ بوجود مدرسة واحدة أو اثنتين لا أكثر. - اتجاه ثالث يرفض اعتبار الجانب الجغرافي أصلاً ومعيّاراً لهذا التقسيم. وستعرض لكل اتجاه بصفة مختصرة:

• **الاتجاه الأول:** يرفض بعض الدارسين القبول بوجود هذه المدارس النحوية، لأن النحو العربي واحد واختلاف العلماء كان في الأصول لا الفروع، يذكر هذا الدكتور إبراهيم السامرائي في قوله: « وقد أنكرت أن يكون مدرستان هما المدرسة البصرية والكوفية، فالنحو القديم واحد وإن كان هناك من شيء فاختلاف اللاحقين ممن دعوا

بالكوفيين عن المتقدمين من البصريين لمسائل تتصل كما أشرت بالفروع لا بالأصول». كما ينكر التواتي بن التواتي إنكاراً صريحاً وجود هذه المدارس لكنه يتراجع قليلاً فيصرح بأنه يقبل ذلك بتحفظ وعلى مضض لأن الدارسين دأبوا على إثباتها. يقول: «إن البصريين ذهبوا إلى أن الاسم مشتق من (السمو) وذهب الكوفيون إلى أنه مشتق من (الوسم)، لهذا ليس بخلاف تبني عليه مدرسة ... ومهما يكن فإن العرف عند مؤرخي النحو دأب على أن هناك مدرستين نحويتين تختلفان في المنهج والتحليل والمصطلح غير أننا نقبل بوجودهما بكل تحفظ».

• **الاتجاه الثاني:** وهو الذي لا يعترف إلا بمدرسة أو اثنتين وينكر غيرهما، ورأي أصحاب هذا الاتجاه يتلخص في أن النحو بدأ بصرياً ثم نضج كوفياً، وما بعدهما ما هو إلا امتداد لهاتين المدرستين، أو هو في الأساس امتداد لمدرسة واحدة في المدرسة البصرية «فقال بعضهم أنه لا توجد إلا مدرسة نحوية واحدة هي مدرسة البصرة، وأنكروا وجود مدرسة باسم الكوفة وقد سبق إلى القول بهذا "جوتولد فايل"».

• **الاتجاه الثالث:** وهذا الرأي يرفض اعتبار الجانب الجغرافي معياراً لتقسيم النحو إلى مدارس، ويرى بدلاً عنه الرابط الفكري المتمثل في الاصطلاح والمنهج. يقول أحمد مختار عمر: «فنحن لا نوافق على اتخاذ المعيار الجغرافي أساساً لتقسيم العلوم إلى مدارس فكرية مختلفة». كما يرى هذا الرأي سعيد الأفغاني الذي يرفض اعتبار المعيار الجغرافي معياراً للمدارس النحوية.

حجج المنكرين: أن الاختلاف بين هؤلاء النحاة كان في الفروع لا الأصول، وأن مصطلح مدرسة مجتلب أساساً من العلوم الغربية والدليل على ذلك أن أول المستعملين لهذا المصطلح هم المستشرقون، وأن النحاة يأخذون عن بعضهم من قطر إلى قطر فلا يسمح بتميز نخاة كل إقليم عن غيره، إن الاختلاف يكون بين نخاة الإقليم الواحد فقد اختلف البصريون فيما بينهم كما اختلف الكوفيون، وأن نشأة النحو كانت بالبصرة ومن أتى بعد ذلك من العلماء كانوا عالة على نخاتها. إن بعض الأقاليم أقامت نحوها على انتخاب ما ترتضيه من آراء غيرها مثل مدرسة بغداد في نظرهم ليست مدرسة لأنها مزجت بين آراء البصريين والكوفيين.

ثانياً: المثبتون للمدارس النحوية: يرى كل من بروكلمان ومهدي المخزومي أن عدد المدارس النحوية ثلاث مدارس هي: المدرسة البصرية، والمدرسة الكوفية، والمدرسة البغدادية، ويضيف طه الراوي ومحمد أسعد طلس مدرسة رابعة هي: المدرسة الأندلسية. والمدارس النحوية عند شوقي ضيف خمس مدارس المذكورة آنفاً ويضيف لها المدرسة المصرية ويرى التواتي بن التواتي أن عدد المدارس ثلاثاً: المدرسة البصرية، المدرسة الكوفية، المدرسة الأندلسية، ويذهب أحمد أمين إلى القول نفسه

حجج المثبتين: اختلاف هذه المدارس في المصطلح، اختلاف هذه المدارس في المنهج، آراء العلماء في هذه الاتجاهات تؤسس إلى استقلال كل فريق بمدرسته، إجماع نسي من الدارسين على وجود هذه المدارس.

المحاضرة السادسة

منهج المدرسة البصرية وأعلامها

لم يكن الاختلاف بين البصريين والكوفيين اختلافاً نشأ عنه نحوان متعارضان، وإنما هو اختلاف في المنهج المعتمد، وفي النظرة الخاصة التي فرضتها كل من البيئتين وما أحاط بنحاتها من ظروف اجتماعية أو ثقافية أو لغوية أدت إلى انتهاز منهج اعتمدوا فيه على التوسع في قبول لغات لم يعتد بها غيرهم وسماع أشعار ما وجدت في البيئة الأخرى، هذا ما أفرز أقيسة مختلفة وتعليلات جديدة وتقديرات أو تأويلات فرضتها هذه النصوص. تأثر نحوه البصرة بالبيئة البصرية بنهج المعتزلة في الاحتكام إلى العقل واجتناب كل ما يتعارض معه، فأهملوا الشواذ في اللغة، لهذا سمي نحوه البصرة أهل المنطق، ولذا كان البصريون أكثر حرية وأكثر تنظيماً في دراساتهم النحوية، وطريقتهم هي الاعتماد على الشواهد الموثوق بها، الكثيرة التداول الشائعة على ألسنة العرب التي تصلح أن تكون قاعدة تتبع للثقة فيها، ولن يكون ذلك إلا إذا وردت في كتاب الله الكريم، أو نطق بها العرب الخالص الذين يشهد لهم بفصاحتهم، إذ يرى السيوطي أن البصريين أصبح قياساً لأنهم لا يلتفتون إلى كل مسموع ولا يقيسون على الشاذ.

أولاً: منهج مدرسة البصرة: في هذا العنصر سنقف عند خصائص المنهج عند كل مدرسة، ليرى أهم المميزات التي تمتاز بها كل مدرسة على حدة، لأن هذا سيمكّننا من التأكيد أن هذه المدارس النحوية لم تكن مجرد أسماء على مسميات إنما كانت تختلف في جوهر مهم هو منهج الدراسة، فما هو منهج المدرسة البصرية وما هي خصائصه؟

1- السماع: إنّ التأسيس لقواعد النحو عند البصريين أمر ذو شأن عظيم، لا يمكن أن يصدر عن عقل عالم منفرداً مهما كانت درجة رسوخه في اللغة العربية وإحاطته بلهجاتها ومعرفة الأصيل من الدخيل منها، بل لابد من نقل يعضد هذه المعرفة اللغوية حتى تتضح الحجة ويقوى الدليل، فمنهج السماع عند البصريين ليس سماعاً عادياً يقبل الأثر الواحد أو الأثرين إنما يجب في هذا الأثر أن يطرد في استعمالات لغوية شتى تتساق معاً الأشباه والنظائر اللغوية، فما اتسم بالقلّة والندرة وإن كان قائماً رد لعدم كثرته وتواتره، فوصفوه بالنادر والشاذ، وما كانوا يتشبهون بلغة قبيلة واحدة ولو شاع الاستعمال لديها إنما فرضوا على منهجهم في السماع من قبائل اشتهرت بالفصاحة وانعزلت في البادية فلم تلوث لغاتهم برطانة الأعاجم، فأخذوا عن هذيل وكنانة وعن طائفة من الطائيين لتوغلهم في البادية وتفردهم في أقاليم منيعة عن الأعاجم، فلم يسمعوا من قبائل كانت مظنة التأثير بالأجنبي كقبليتي لخم وجذام لمجاورتهم القبط، وما سمعوا عن قضاة ولا غسان ولا إياد لمجاورتهم الروم بالشام ولا من بكر لقربهم من النبط والفرس.

2- القياس: إن كلام العرب لا يمكن أن يستوعبه السماع جملة وتفصيلاً؛ فليس كل الأفعال المستعملة في اللغة العربية نطقها العرب الأوائل ولا كل الفاعلين ولا كل المفعولين، لهذا كان لابد من النظر في منهج ثانٍ بعد السماع يؤسس للقاعدة النحوية معززاً بالحجة مدعوماً بالدليل ذلك المنهج هو القياس الذي بواسطته أضيفت مادة لغوية

جديدة على ما هو مسموع ومنقول عن العرب وفي ذلك قيل ألا ترى أنك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كل فاعل ولا مفعول وإنما سمعت البعض فقست عليه، فإذا سمعت "قام زيد" أجزت "'ظرف بشر" و "كُرم خالد" إذاً فالقياس عمل يقوم به النحاة من تلقاء فكرهم وفهمهم للغة العرب فينشئون قواعد النحو انطلاقاً من عرض ما عنّ لهم من استعمالات لغوية جديدة على ما سمع عن العرب من لغتهم القديمة. ويمكن تلخيص خصائص القياس عند نحاة البصرة بأنهم تعمقوا فيه واتخذوه ملاذاً لا مندوحة عنه فقد يقيسون على الكثير الكثير من لغة العرب فيضعون القاعدة.

3- التعليل: يعرف علي أبو المكارم التعليل بقوله: «وهكذا كان التعليل بمثابة تفسير للقواعد النحوية، يهدف إلى توضيح القاعدة بالكشف عن مبرراتها» إذاً فالتعليل أو العلة في النحو هو منهج يهدف إلى تفسير الظاهرة النحوية كما فهمها النحاة معتمدين في ذلك على إسناد فهمهم إلى قوانين العقل والمنطق، وعلل النحو مختلفة ومتشابهة أنواعها ومضامينها بالنظر إلى المعاني النحوية المراد تفسيرها، فإذا أردنا الحديث عن أنواعها من حيث أهميتها وقوتها نجد النحاة قسموها إلى ثلاثة أقسام:

أ- العلة التعليمية: والمراد بها الكشف عن خصائص اللغة العربية من خلال علاقة الكلم بعضها بعضاً، بغية الإمام بهذه العلائق المعنوية بين تراكيب الكلام مثل: قام زيد، زيد: فاعل مرفوع، لأنه هو من قام بالفعل فوجب رفعه لاطراد الرفع مع معنى الفاعلية، وسمي هذا النوع العلة الأولى.

ب - العلة القياسية: يقصد بها تفسير الظاهرة النحوية وإبداء جوانب الحكمة في كل ذلك من قبيل: لماذا جاء الفاعل مرفوعاً والمفعول منصوباً. عللوا ذلك بأن الفاعل وروده قليل في كلام العرب، فوضعوا علامة الرفع وهي الضمة الموصوفة بالثقل، فجعلوا الثقل مع القليل طلباً للاتزان اللغوي، والمفعول وروده كثير جداً والفتحة أخف من الضمة، فوضعوا لهذا الكثير الحركة الأخف.

ج - العلة الجدلية: وهي محاولة إضفاء علل منطقية على علل النحو أو هي بما يعرف بعلة العلة من قبيل تعليل اختيار الفتحة علامة على النصب، واختيار الضمة علامة على الرفع. وبما أننا في مقام الحديث عن التعليل عند مدرسة البصرة يجدر بنا أن نعرض واحداً من تعليلاتهم ومن ذلك تعليل كل من الخليل وسيبويه والبصريين بصفة عامة استحقاق الإعراب للأسماء، واستحقاق البناء للأفعال والحروف عللوا ذلك بأن الأسماء كلما كانت متمكنة مكناؤها فهي أبعد ما تكون عن الحروف فأعربت ونوّنت، ولكنّ الأسماء إذا فقدت هذا التمكن اقتربت من الحروف فشابهتها فبنيت لهذا الشبه بالحروف، وهذا التعليل من قبل البصريين ينمّ على قوة الملاحظة لديهم وشدة تعلقهم بالموضوعية التعليمية في صناعتهم.

ثانياً: الأمور التي تراعيها مدرسة البصرة في بحثها:

• **المادة العلمية:** اعتمد البصريون في مادة منهجهم العلمي على الأفصح من الألفاظ والأسهل منها على اللسان، ولذا كانت القبائل التي اعتمدوا عليها في منأى الاحتكاك بالأمم الأعجمية، فانصب اختيارهم على قيس

وتقيم وأسد فأخذوا أكثر قواعدهم من أهلها في اللغة والإعراب والتصريف، ثم أخذوا من هذيل بعض وكنانة وبعض الطائيين، ولم يأخذوا عن أهل الحضر ولا من سكان البراري ممن كانوا بجوار الأمم الأخرى.

• سلامة لغة المأخوذ عنهم: كان البصريون يختبرون سلامة لغة من يشكون في لغته، بالرغم من فصاحته التي يشهد له بها.

• التأكد من الثقات في صحة المروي: كان البصريون يتحرون عن الرواة، فلا يأخذون إلا برواية الثقات الذين سمعوا اللغة من الفصحاء عن طريق الحفظة والإثبات، والذين نقلوا المرويات عن قائلها منسوبة إليهم، فقد أبوا أن يستدلوا بشاهد لم يعرف قائله.

• الكثرة: لغة كثيرة التداول لا قليلة: اشترط البصريون فيما ينقل عن العرب الكثرة، فيقعدون على الأكثر وإلا فعلى الكثير، وإلا فعلى القليل وإلا فعلى الأقل وإلا فعلى النادر، وإلا قاسوا الأشباه على الأشباه والنظائر على النظائر إذا لم يتناقض مع الوارد، ولذا اعتبر سيبويه قياس فعولة بفعيلة في النسب إليها؛ بحذف حرف المد وقلب الضمة فتحة، وإن لم يرد منها إلا شئ في النسب إلى شئ لأنه لم يرد ما يخالفها فإذا ما خالف الوارد ما سبق من قياس أولوه أو اعتبروه شاذاً يحفظ ولا يقاس عليه.

ثالثاً: مصادر الدراسة عند البصريين:

• القرآن الكريم: أقام البصريون نحوهم على القرآن الكريم، حيث كانوا يستشهدون في كثير من المسائل بآيات من القرآن الكريم، فكان القرآن أحد مصادرهم المهمة والأساسية، ولم يأخذوا بقراءات عدة وهي شيء من العربية، ولها أساس في لغة العرب فقد حملوا على الخطأ قراءة نافع في قوله تعالى: " **لهم فيها معائش** " بالهمز في معائش وحثهم في التخطئة أن الياء في معائش أصلية؛ لأنها من المد في معيشة والمد الأصلي لا يبدل همزة مع علمهم أن للقراءة سندا متصلا وأن القراءات السبع مما يجب أن يؤخذ بها وهي حجة قائمة. وكان البصريون لا يكثرثون بالقراءات التي تخالف قواعدهم معتقدين أنها من ابتداع القراء وليس لها من سند يوصلها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنها في الواقع هي قراءات مشهورة مع اتصال سندها، فقد خطأوا قراءة حمزة مقرئ أهل الكوفة لقوله تعالى: **واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام** بحر الأرحام وهي قراءة مشهورة وهي إحدى القراءات السبع المعروفة ووجه الخطأ حسبهم أنه لا يجوز العطف على الضمير المجزوء إلا بإعادة الجار.

• الشعر العربي: اعتبر البصريون الشعر العربي أصلاً من أصولهم في الاحتجاج، كما اعتمدوا على الشعر الإسلامي فاستشهدوا في نحوهم بشعر الفرزدق وجريير والعجاج ورؤبة وأبي النجم وابن هرمة الذي ولد سنة تسعين للهجرة

وعمر طويلا حتى تجاوز منتصف القرن الثاني، إذن فالمادة التي اعتمد عليها البصريون في الاحتجاج في لغة القرآن الكريم والشعر العربي القديم جاهليه وإسلاميه، وما أثر من الأمثال الجاهلية، وقد خطأ البصريون الكثير من الشعراء الفصحاء من الجاهليين من ذاك تخطئة عيسى بن عمر الثقفي للنابعة في قوله:

فبتُ كاني ساورني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم نافع

حيث قال عيسى بن عمر أساء النابعة إنما هم ناقعا إذ جعل القافية مرفوعة وحقها أن تنصب على الحال، لأن المبتدأ قبلها تقدمه الخبر وهو الجار والمجرور، وكان النابعة ألغاهما لتقدمهما وجعل ناقعا الخبر. وخلاصة ذلك أن البصريين تحروا ما نقلوه عن العرب، ثم استقرأوا أحواله، فوضعوا قواعدهم على الأعم الأغلب، فإن وجدوا نصوصا قليلة لا تشملها قواعدهم اتبعوا إحدى طريقتين: إما أن يتأولوها حتى تنطبق عليها القاعدة، وإما أن يحكموا عليها بالشذوذ أو بالحفظ دون القياس عليها. وقد غلبوا القياس على المسموع مؤولين الشواهد التي تخالف قياسهم، كما قالوا بما سمّوه مطردا في السماع شاذا في القياس نحو: استحوذ، استصوب والقياس فيهما الإعلال نحو: استقال واستجاد واستطال فقالوا تحفظ الكلمات النادرة التي وردت عن العرب في هذا الباب ولا يقاس عليها.

رابعا: أشهر علماء مدرسة البصرة: من أهم أعلام مدرسة البصرة ابن أبي إسحاق الحضرمي، وعيسى بن عمر الثقفي، وأبو عمر بن العلاء، ويونس بن حبيب، وقطرب، وأبو عمر الجرمي، وأبو عثمان المازني والمبرد، والزجاج. وابن السراج، والسيرافي، والخليل بن أحمد وسيبويه.

• **سيبويه:** هو عمرو بن عثمان بن قنبر، من موالي بني الحارث ابن كعب، فارسي الأصل والمولد، بصري المربي والنشأة لم يعمر كثيرا توفي سنة 180 هـ على أرجح الروايات، خدم العربية، وأهدى لها كتابا عرف بالكتاب وأطلق عليه قرآن النحو، اعتمده النحويون في دراساتهم، وتقول بعض الروايات أن سيبويه لم يكن له الفضل الأكبر في تأليف الكتاب بل أخذ معظمه عن أستاذه الخليل بن أحمد، توفي سيبويه بعد المناظرة التي خرج منها منهزما أي بعد المسألة الزنبورية.

المبرد: هو محمد بن يزيد الأزدي، ولد بالبصرة واختلف في سنة مولده ف قيل 210 وقيل 207 كما قيل 195 هـ من شيوخه: الجرمي والسجستاني والمازني الذي لقبه بالمبرد (بكسر الراء) بمعنى المحقق اعترافا بفطنته، غير أن الكوفيين فتحوا الراء نكايه فيه... جاء في كتاب (العقد الثمين في تراجم النحويين): "قال ابن حماد النحوي: ... وكان المبرد أكبر تفننا في جميع العلوم من ثعلب، قلت: له تصانيف كثيرة يقال: إنّ المازني أعجبه جوابه، فقال له: قم فأنت المبرد، أي المثبت للحق، ثم غلب عليه بفتح الراء" وقال عنه شوقي ضيف: "والمبرد يعدّ بحق آخر أئمة البصرة المهمّين" توفي المبرد سنة 285 هـ ببغداد ومن تصانيفه: المقتضب...

المحاضرة السابعة

منهج مدرسة الكوفة وأعلامها

لقد رأيت أن تأسيس مدينة الكوفة كان مترامنا تقريبا مع تأسيس مدينة البصرة، إلا أن البصرة سبقت الكوفة إلى النحو بزهاء مئة عام، وأما الكوفة فقد كانت منشغلة بالشعر وروايته، غير آخذة من علم النحو بأي طرف، في حين كانت حركة الدرس النحوي من تنظير ومناظرات نشطة وعلى أشدها، ويجمع مؤرخو النحو العربي على أن الكسائي هو أول من نقل النحو إلى الكوفة، ذلك أنه كان من علماء القراءات القرآنية فأيقن ألا مندوحة له من علم النحو، إيمانا منه بأن النحو سيفتح له أبوابا كثيرة في علم القراءات وعلم التفسير. تقول خديجة الحديشي: " فانصرف أهل الكوفة عن شؤون الحياة الأخرى، واهتموا بالشعر عن الدرس اللغوي والنحوي الذي شاركت فيه الكوفة في عهد متأخر عن البصرة التي سبقتها إلى ذلك بمائة عام و كان الكسائي أبرز من اهتم بالدراسات النحوية وأدخلها إلى الكوفة ونشطها... فقد وجد الكسائي نفسه محتاجا إلى الإلمام بعلم اللغة ليخدم قراءاته وليساعده على تفسير القرآن الكريم"

أولا: منهج مدرسة الكوفة في الدرس النحوي:

1 – القياس عند الكوفيين: إنَّ القياس عند الكوفيين منهج أصيل لا يكتمل النحو إلا به، ولا تتسع اللغة إلا من خلاله... ولقد حصر زعيمهم الكسائي النحو في القياس بقوله:

إنما النحو قياس يُتَّبَع ... وبه في كلِّ علم يُتَّبَع

هذا ولقد ذكرنا فيما سبق تشدّد البصريين في القياس إذ كانوا لا يقيسون إلا على ما سمعوه عن العرب الخالص، غير أنّ الكوفيين توسعوا و ترخّصوا فقاسوا على النادر والشاذ، بل وقاسوا على لغة من فسدت ألسنتهم من أهل البدو والحضر والأكثر من ذلك أنهم قاسوا على غير المسموع. يقول شوقي ضيف: " ويبقى أن تعرف أن الكوفيين لم يقفوا بقياسهم عند ما سمعوه ممن فسدتهم سلاقتهم من أعراب المدن، أو ما شذّ على ألسنة بعض أعراب البدو، فقد استخدموا القياس أحيانا بدون استناد إلى أي سماع" وسنختصر في ما يلي نماذج من القياس عند الكوفيين:

• **التوسع في القياس على صيغة (ما أفعله) في التعجب:** والمعلوم أنّ هذه الصيغة عند البصريين مرتبطة بشروط، ومنها قابلية الأفعال للتفاضل في معانيها وذاك ما لا يتحقق في الأفعال التي تدل على لون، أي لون فلا يقال: ما أزرقه ولا ما أبيضه ولا ما أسوده غير أن الكوفيين أجازوا ذلك في السواد والبياض وحتّهم أن هذين اللونين أصلا لكل الألوان الأخرى. " وأما القياس فقالوا: إنما جوّزنا ذلك من السواد والبياض دون سائر الألوان لأنهما أصلا الألوان، ومنها يتركب سائرهما من الحمرة والصفرة والخضرة والصفهة والشبهة والكهبة إلى غير ذلك.

- **عمل اسم المصدر:** أنكر البصريون عمل اسم المصدر ولم يقيسوه على عمل المصدر، وردّوا ما جاء فيه عمل اسم المصدر من صحيح الحديث النبوي، ومن الشعر العربي، وأما الكوفيون فأجازوا عمل اسم المصدر قياساً على عمل المصدر، ومن بين ما استشهدوا به قول الرسول (صلى الله عليه وسلم): " من قبله الرجل امرأته الضوء".

2 - النقل أو السماع عند الكوفيين: لقد اتخذ الكوفيون بدورهم السماع منهجاً في دراساتهم النحوية، فلقد ارتحل نخاة الكوفة إلى البوادي والقفار كما ارتحل نخاة البصرة، إذ أثر الكسائي إمام الكوفيين التطواف في كل من نجد وحمّامة والحجاز. غير أنّ الكوفيين كانوا لا يتخرجون أن يأخذوا من قبائل متاخمة للفرس كتغلب وبكر... وكانوا يقبلون الشاذ والقليل والنادر، والكلام المجهول القائل وذاك ما لم يقبله البصريون الذين كانوا يفتخرون بسماعهم على سماع الكوفيين ويقولون: " نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع وأنتم تأخذونها عن أكلة الشواريز وباعة الكواميخ"، ومن مظاهر النقل عن القليل والشاذ عند الكوفيين حسابهم (نعم) و(بئس) اسمين: " ذهب الكوفيون إلى أن (نعم) و(بئس) اسمان مبتدآن فاحتجوا بأن قالوا: الدليل على أنهما اسمان دخول حرف الخفض عليهما فإنه قد جاء عن العرب أنها تقول: (ما زيد بنعم الرجل)، وحيّ (نعم السير على بئس العير)"

3 - الرواية عند الكوفيين: معلوم أن الكوفيين كانوا أكثر اهتماماً بالشعر وروايته، كما كانوا ضنينين بالشعر عن غيرهم ظناً منهم أن ذلك سيكسب مذهبهم تميزاً عن البصريين، غير أنّ الدارسين أثبتوا أن الكوفيين باعتمادهم بما عندهم من الشعر وروايته جرّ عليهم ذلك ضخامة في المادة اللغوية، أدت بالضرورة إلى خلط واضطراب في درسهم اللغوي، خاصة وأنّ هذه الضخامة اللغوية أملاها عليهم أعلام متهمون في الأمانة والموضوعية إلى حدّ النحل والزيادة، من أمثال: (خلف الأحمر) و (حماد الراوية) يقول المهدي عبد العال في كتابه: (النحو والنحاة): " وأضفنا إلى ذلك اهتمام الكوفة بالشعر في المقام الأول... فظنوا أن ذلك من الممكن أن يعوّضهم نقص الرواية والسماع من أفواه العرب الخالص، فقد سلّط عليهم من حماد الراوية وخلف الأحمر ما أضع الثقة الاطمئنان"

4 - التعليل عند الكوفيين: كان التعليل منهجاً عند كلتا المدرستين لأنّ به يتضح التوجيه النحوي، ومعه تتجلى عبقرية الواضع العربي ودقته، غير أنّ للتعليل حدوداً - كما أشرنا من قبل - لا تبيح تجاوز حدّ اللغة ومقتضياتها الطبيعية ولما أوغل فريق من النحاة في التعليل أدخلوا النحو في جدل عقيم وإغراب شديد، ومن أجل ذلك حمل بعض الدارسين على الكوفيين إفراطهم في التعليل إلى حدّ القفز على حقيقة اللغة والوصول به إلى متاهات الفلسفة والجدال ومحاولة إيجاد منطق خاص باللغة يقول المهدي عبد العال: " وقد يلجأ الكوفيون إلى التعليل الفلسفي الخالص الذي يخرج عن روح اللغة، إذ إنّ اللغة مبناهما على الإلف والعرف والتذوّق الخالص الخاص بأهلها الناطقين بها ومن ذلك تعليلهم لرأيهم في جواز تقديم خبر مازال وأخواتها عدا مادام بأنها لا تنفي الفعل وإنما تنفي مفارقة الفعل".

ثانياً: أعلام مدرسة الكوفة:

الكسائي: أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله، فارسي الأصل من موالي بني أسد كان إماماً في النحو شيخاً في القراءات له قراءة خاصة من السبع المتواترات، لقّب بالكسائي لأنه أحرم في كساء وقيل غير هذا... ولد بالكوفة وبها نشأ وتعلم النحو في كبره على شيوخ منهم: معاذ الهراء، وسافر إلى البصرة وتلمذ لعيسى بن عمر والخليل، من تلاميذه في القراءات: أبو عمر الدوري وأبو الحارث الليث، لما عاد إلى الكوفة ازدهر النحو بها وشاع فاشتهر الكسائي، ودعاه المهدي أحد الخلفاء العباسيين إلى بغداد، ولما آلت الخلافة إلى الرشيد اختاره مؤدباً لولديه: الأمين والمأمون، فطغى النحو الكوفي على بغداد، زار البواديّ وجمع العربية من أعرابها الخلف توفى الكسائي سنة 189 هـ ومن تصانيفه: معاني القرآن كتاب في القراءات، وكتاب النوادر الكبير، ومختصر في النحو.

2- الفراء: أبو زكريا يحيى بن زياد، يلقب بالفراء واختلف في سبب ذلك، قيل لأنه كان يفري الكلام أي يقطعه وقيل لأنه يخطط الثياب من الفراء أي الجلد، أصله من الديلم أحد أقاليم فارس ولد بالكوفة، وبها نشأ وتعلم، من شيوخه: الكسائي ويونس بن حبيب والرؤاسي، كان عالماً بأيام العرب وأشعارها، اتصل بالمأمون ونال عنده الحظوة، وكان يعيش متنقلاً بين بغداد والكوفة مات سنة 207 هـ ومن كتبه: معاني القرآن، الحدود وهو كتاب في النحو، الجمع والتشنية في القرآن وكتب أخرى.

المحاضرة الثامنة

مدرسة بغداد منهجها وأعلامها

أولاً: النحو في مدينة بغداد: كما ذكرنا في المحاضرة الخامسة جدل العلماء حول وجود المدارس النحوية من عدم وجودها وتوصلنا آنذاك إلى أن من مقتضيات البحث العلمي الجناح إلى التصنيف والتقسيم والتبويب، وتصنيف البيئات النحوية المختلفة إلى مدارس من شأنه أن يميز كل بيئة بخصائصها ومنهجها، ومن ذلك أكدنا وجود هذه المدارس.

وفي هذه المحاضرة كذلك يجدر بنا ألا نغفل عن الجدل الذي جرى بين مؤرخي النحو العربي ودارسيه قديماً وحديثاً حول وجود مدرسة نحوية تسمى (مدرسة بغداد). ومن هناك نطرح هذه الإشكالية: -هل يصح علمياً أن يمتاز نحاة بغداد إلى درجة أنهم يشكلون (مدرسة)؟ - وما موقف الدارسين من هذه المدرسة قديماً وحديثاً؟ نجيب عن هذا التساؤل باختصار فيما يلي: أوردت خديجة الحديثي رأياً للمرزياني أحد دارسي النحو العربي ومؤرخيه مفاده أنه لا يعترف لا تصريحاً ولا تلميحاً بوجود جماعة تسمى (مدرسة بغداد النحوية) وفي أثناء ترجمته للنحاة البغداديين لا يذكر أنهم يمثلون مذهباً خاصاً أو مدرسة مستقلة إنما يصفهم بأنهم امتداد لإحدى المدرستين البصرة أو الكوفة. تقول خديجة الحديثي: "لقد كان المرزياني أول من أفرد قسماً لأهل بغداد لكنه لم يذكر شيئاً عن نحوهم في ترجمته لهم" وأما أبو الطيب اللغوي في كتابه: (مراتب النحويين) فيذكر أن النحو انتقل إلى بغداد من البصرة والكوفة وغلب على بغداد النحو الكوفي، بل ويذكر فساداً وخلطاً كان قد أصابها النحو في بغداد فضلاً على أن يعترف بنحو بغداد أو المذهب البغدادي. يقول: "فلم يزل أهل المصرين على هذا حتى انتقل العلم إلى بغداد قريباً، وغلب أهل الكوفة على بغداد وتباهوا بالترخيصات وتركوا الأصول واعتمدوا على الفروع فاختلف العلم" و لما كان أبو سعيد السيرافي يتحدث عن أصحاب المبرد، ذكر بين يدي حديثه علمين من أشهر أعلام المدرسة البغدادية هما: الزجاج وابن كيسان، غير أنه لم يشر إلى أنهما قد استقلا استقلالاً مذهبياً أو مدرسياً، عن المدرستين العريقتين: البصرة والكوفة. وفي ذلك يقول ما نصه: "ومن أصحاب أبي العباس محمد بن يزيد: أبو اسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، وأبو الحسن بن كيسان وإليهما انتهت الرياسة في النحو بعد أبي العباس محمد بن يزيد، غير أن أبا اسحاق كان أشد لزوماً لمذهب البصريين، وكان ابن كيسان يخلط المذهبين" هذا ولقد أشارت خديجة الحديثي إلى أن الجدل حول وجود مدرسة بغداد النحوية قد ظل قائماً إلى العصر الحديث عند الدارسين العرب والمستشرقين.

ثانياً: منهج المدرسة البغدادية في دراسة النحو:

1- السماع عند البغداديين: فشا اللحن في حاضرة بغداد فشوا كثيراً بسبب اندماج العناصر الأعجمية في المجتمع العربي، إذ استوطن الأعاجم من الأتراك والديلم عاصمة الخلافة العباسية، وكان منهم النساء الجوارى والمغنيات فشاع اللحن بين الناس. ولم يقتصر الأمر على حاضرة بغداد فحسب بل تعداها إلى البوادي ففسدت الألسن. فكان أمام نحاة بغداد هجئة من اللغات على قدر غير مقبول من الفصاحة والسلامة اللغوية فخارت هم أولئك النحاة في

صون العربية، ولم يتشددوا في قبول تلك اللغات على علاقتها واحتجوا بها جميعاً، ومن يستدل بهم في هذا الشأن الزجاجي الذي كان يقبل لهجات العرب كلها، ولا يقبل أن توصف أية واحدة منها بالشذوذ خلافاً لما كان عليه البصريون. وإذا ما نظرنا إلى موقف البغداديين من القراءات القرآنية الشاذة نلفيهم قد خالفوا كلا من البصريين الذين يرفضونها والكوفيين الذين يقبلونها، فكان البغداديون يقبلون القراءات الشاذة واشترطوا لذلك القبول شرطين أن تدعم الرواية هذه القراءات الشاذة وأن يقوم عليها دليل. وأما فيما يتعلق بالحديث النبوي الشريف فإنّ البغداديين أسهبوا في الاستشهاد به. وأما الشعر العربي فإننا نجد البغداديين مدوا زمن الاحتجاج واستشهدوا بأشعار المولدين ومنهم بشار بن برد وأبو نواس.

2 – القياس عند البغداديين: وقف البغداديون موقفاً وسطاً في القياس بين البصريين والكوفيين، إذ قاسوا على الشاذ وقبلوه بشرط عرضه للمناقشة على الدارسين الأعلام فإذا أجازوه هؤلاء الأعلام في خضم مناقشتهم أجازوه وإن رفضه الأعلام رفضوه. ويفرد محمد المختار ولد اباه مبحثاً خاصاً بالسماع والقياس عند واحد من نخاة بغداد وهو الرماني الذي وصفه بأنه أظهر القياس في صورة واضحة جلية لأنه [أي الرماني] يرى أن القياس الصحيح هو الجمع بين شيئين بما يوجب اجتماعهما في الحكم كالجمع بين الاسم والفعل بالرفع بعامل الرفع، فالقياس الصحيح هو المطرد والمستند على السماع.

3 – التعليل عند البغداديين: المعروف عند نخاة بغداد أنهم تأثروا كثيراً بالمنطق في تعليلاتهم، وذاك ما يصرح به المختار ولد أباه في مقام سوقه رأياً لابن جني في العلة والتي هي عنده مأخوذة من مذهب المتكلمين وقرينة من تعليلهم. يقول: "وفي حديثه [يقصد ابن جني] عن العلل يقترب ابن جني من مذهب المتكلمين وقال إن العلل النحوية أقرب إلى عللهم وإن مرجعها العام هو الثقل والخفة" وفي المبحث الموالي سنتكلم عن أشهر نخاة المدرسة البغدادية وفي خضم حديثنا عنهم سنبقى مرتبطين بالمبحث السابق وهو المتعلق بمنهج البغداديين في الدراسة النحوية.

ثالثاً: أعلام مدرسة بغداد: قبل التطرق إلى ذكر أسمائهم والتعرض لمختصر من تراجمهم ننوّه إلى المنهج العام الذي طبع أعلام المدرسة البغدادية، فلقد دأب مؤرخو النحو العربي في ترجمتهم لنخاة بغداد أن يصنفوهم إلى ثلاثة أصناف:

أ- نخاة اتسم منهجهم بالنزعة البصرية.

ب- نخاة اتسم منهجهم بالنزعة الكوفية.

ج - نخاة اتسم منهجهم بالمزج بين النزعتين البصرية والكوفية.

من ظلوا على المنهج البصري:

1 – أبو علي الفارسي: هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن سليمان، ولد بفارس، وارتحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها ومنهم: المبرد، وابن السراج، والزجاجي فنبغ في النحو حتى قيل عنه أنه فاق المبرد فيه، توفي سنة 377 هـ من مؤلفاته: التذكرة، والإيضاح، والحجة في القراءات، وكتب في مسائل: البغداديات، الشيرازيات، العسكرية.

2 - ابن جني: هو عثمان بن جني، كنيته أبو الفتح، رومي الأصل أزدى الولاء، وجني اسم غير عربي وتعريبه كني ومعناه فاضل، كريم. ولد بالموصل وبها نشأ وتعلم، من شيوخه: الأخفش وهو غير الأخافشة المعروفين لأن اسمه أحمد بن محمد الموصلبي الشافعي، كما أخذ عن أبي علي الفارسي، كان إماما في النحو والصرف غزير التأليف فيهما شاعرا وراوية، توفي سنة 392 هـ من مؤلفاته: الخصائص، اللمع في العربية، سر صناعة الإعراب، المحتسب، التصريف الملوكي، علل الثنية.

من اختاروا المنهج الكوفي:

1 - أبو موسى الحامض: سليمان بن محمد بن أحمد، غلب عليه لقب الحامض وقد برره بحدة مزاجه وتهوره، مكث طويلا يأخذ العلم عن ثعلب، كان ذا فطنة وحافظة، شديد التعصب للكوفيين، توفي سنة 205 هـ، من كتبه: مختصر في النحو، كتاب الوحوش، كتاب النبات.

2 - ابن الأنباري: أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن الأنباري، اشتهر بالقراءة والنحو، من شيوخه والده القاسم ابن محمد الأنباري الأديب المحدث، وثعلب، وإسماعيل القاضي وغيرهم كان آية في الحفظ والفهم صادقا متدينا، توفي سنة 327 هـ وله زخم كبير من المؤلفات ومنها: خلق الإنسان، خلق الفرس، الأمثال، غريب الحديث.

من انتخبوا من المنهجين البصري والكوفي:

1 - ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ولد بالكوفة، ولقب بالدينوري نسبة لمدينة (دينور) بفارس والتي ولي القضاء بها، عاش زما ببغداد وتعلم على أيدي الزيادي والرياشي وابن راهويه وغيرهم، قال عنه أبو الطيب اللغوي في (مراتب النحويين): "...إلا أن ابن قتيبة خلط عليه بحكايات عن الكوفيين لم يكن أخذها عن ثقات، وكان يتسرع في أشياء لا يقوم بها، نحو تعرضه لتأليف كتابه في النحو، وكتابه في (تعبير الرؤيا). وكتابه في (معجزات النبي صلى عليه وسلم وعلى آله)، و(عيون الأخبار)، و(المعارف)، و(الشعراء)، ونحو ذلك مما أرى به عند العلماء" توفي سنة 287 هـ من مؤلفاته: أدب الكاتب، الجامع الكبير في النحو، والجامع الصغير.

2 - ابن كيسان: أبو الحسن محمد بن أحمد بن كيسان، ولد ببغداد وبها نشأ وتعلم ولم يغادرها حتى لقب بالبغدادي، سمع عن المبرد وعن ثعلب فعّد من المازجين بين المذهبين، من تلاميذه أبو جعفر النحاس، توفي على أرجح الأقوال سنة 299 هـ ولديه تصانيف كثيرة منها: شرح السبع الطوال، علل النحو، غريب الحديث، الكافي في النحو، شرح معلقة امرئ القيس و لقد زاد شوقي ضيف على أعلام المدرسة البغدادية صنفا بعنوان: (بغداديون متأخرون) وفيهم:

الزخشي: أبو القاسم جابر الله محمود بن عمر المشهور بالزخشي نسبة إلى القرية التي ولد بها وهي زخشر بخوارزم، وبها نشأ وتعلم، ثم انتقل إلى بخارى ثم بغداد، ونزل بمكة زمنا ويقال إنه كان معتزليا، توفي سنة 538 هـ وله تصانيف عديدة منها: تفسير الكشاف، أساس البلاغة.

المحاضرة التاسعة

الاختلاف النحوي بين مدارس المشرق العربي

لا بد من التنويه إلى أن مجال الاختلاف النحوي بين المدارس النحوية كان في الفروع لا في الأصول، وسننشئ الاختصار والإشارة حتى نقف عند أهم مظاهر الخلاف بين هذه المدارس. ولعله من المفيد أن نذكر أن ذلك الاختلاف بين تلك المدارس قد تجلت مظاهره في أربعة مجالات وهي:

- اختلاف في التحديدات: (بمعنى أن الاختلاف كان في تعريف الموضوع لا في الموضوع نفسه).
 - اختلاف في المصطلح: (أي أن الاختلاف في التسمية العلمية للمفاهيم).
 - اختلاف في المنهج: (وهو المتعلق بتباين طرائق الدرس اللغوي في دراسة المواضيع النحوية).
 - اختلاف في التوجيه النحوي للقراءات القرآنية والأشعار (التأويل النحوي).
- وعليه فإننا نتتبع مظاهر هذا الاختلاف من خلال هذه المجالات الأربعة المذكورة:

أولاً: اختلاف في التحديد: ومنه:

- اشتقاق الاسم: يرى البصريون أن الاسم مشتق من (السموّ) أي الارتفاع، ويرى الكوفيون أنه مشتق من (الوسم) ومعناه العلامة، قال أبو سعيد الأنباري: "ذهب الكوفيون إلى أن الاسم مشتق من الوسم وهو العلامة وذهب البصريون إلى أنه مشتق من السمو وهو العلو" ما نستنتجه أن البصريين والكوفيين يتفقان في لفظ (الاسم) ويختلفان في تحديده واشتقاقه.

- أصل الاشتقاق أهو الفعل أم المصدر؟

يرى الكوفيون أن الفعل هو أصل الاشتقاق وحجتهم أننا نبدأ بالفعل فنقول: ضرب ضرباً وانطلق انطلاقاً، وأما البصريون فيرون أن المصدر أصل الاشتقاق، ومن حججهم أن المصدر يحمل معنى الصدارة أي التقدم. قال أبو سعيد الأنباري: "وذهب الكوفيون إلى أن المصدر مشتق من الفعل وفرع عليه، نحو: ضرب ضرباً وقام قياماً وذهب البصريون إلى أن الفعل مشتق من المصدر وفرع عنه وقالوا إن المصدر إنما سميّ مصدراً لصدور الفعل عنه" نسجل هنا اتفاق المدرستين على تسمية كل من الفعل والمصدر لكنهما تختلفان في أيهما أصل عن الآخر.

- اختلاف حول (نعم) و (بئس) أهما فعلاً أم اسمان؟

يرى الكوفيون أن نعم وبئس اسمان مبتدآن، بينما يرى البصريون أنهما فعلاً ماضيان جامدان، واحتجّ الكوفيون على اسميتهما بدخول حروف الخفض عليهما، واحتجّ البصريون على فعليتهما بقبولهما تاء التأنيث الساكنة، وهي من علامات الأفعال.

ثانيا: اختلاف في المصطلح: إنّ أهم الاختلاف بين المدرستين تظهر في المصطلح النحوي وهو كثير نسبيا لأن كل مدرسة كانت تنو للتمييز عن نظيرتها وسنختار مجموعة من المصطلحات المختلف فيها بين المدرستين مع عزونا كل مصطلح إلى مدرسته من خلال هذا الجدول:

المصطلح البصري	ما يقابله في المصطلح الكوفي
الحشو	الصلة
ضمير الفصل	العماد
الإثبات	الإقرار
التوكيد	التشديد
لا النافية للجنس	لا التبرئة
الجامد	الاسم الثابت
ضمير الشأن	المجهول
اسم الفاعل	الفعل الدام
ينصرف ولا ينصرف	يجري ولا يجري
المضارع	المستقبل
النداء	الدعاء

هذا ولقد وقف شوقي ضيف عند عينة من الخلاف في المصطلح النحوي نذكر منه مايلي:

المصطلح البصري	المصطلح الكوفي
الضمير	الكناية
المفعول فيه، معه، لأجله، المطلق	أشباه مفاعيل
البدل	الترجمة
الظرف	الصفة والمحل
التمييز	التفسير
حروف النفي	حروف الجحد
لام الابتداء	لام القسم

ثالثا: اختلاف في المنهج:

1- السماع أو النقل: لقد مرّ بنا من قبل اختلاف المدرستين في المنهج ومن ذلك اختلافهما في السماع أي (النقل) إذ يتشدد البصريون في جمع اللغة التي يتخذونها شواهد لقواعدهم النحوية ولذلك توغلوا في البادية وسمعوا عن العرب الخالص ووقفوا موقفًا حازما من اللغة الشاذة وتعاملوا معها تحت قاعدة: (الشاذ يؤخذ ولا يقاس عليه) بمعنى أنهم لا يرفضون الشاذ رفضا مطلقا ولكنهم لا يتخذونه مرجعا لبناء آرائهم النحوية. وفي المقابل نجد الكوفيين قد نقلوا عن أهل الحضر وأهل البادية كما سمعوا عن القبائل التي كانت على تخوم الأعاجم.

2 - القياس: وإذا تعلق الأمر بالقياس، فإنّ البصريين لا يقيسون إلا على المطّرد من كلام العرب، ونجدهم يتحرّجون كثيرا من القياس على الشاذ بله على غير المسموع. في حين كان الكوفيون يقيسون على الشاذ وعلى البيت الواحد بل ويسيرون على غير المسموع من اللغة أصلا.

3 - التعليل: وأما التعليل فلقد علمنا فيما سبق أن البصريين في تعليلاتهم يصدرّون من اللغة ذاتها ويحتجون لآرائهم بما فهموه من دقة الواضع العربي وعبقريته، لكنّ الكوفيين في تعليلاتهم كانوا يقحمون ما لا علاقة له باللغة من فلسفة ومنطق وغيرهما. ولكي لا يبقى ما ذهبنا إليه مجرد افتراضات سنورد وبشكل مختصر أمثلة لما كنا قد أوردناه من اختلاف بين المدرستين فيما يلي:

- استدلال شوقي ضيف على اتساع الكوفيين في السماع بما يعرف بـ (المسألة الزنبورية) والتي جرت بين سيبويه البصري والكسائي الكوفي، وسيبويه لا يقبل غير ضمير الرفع المنفصل في المقولة: (كنت أظنّ أنّ العقرب أشدّ لسعا من الزنبور فإذا هو هي). ويرفض بالمطلق ضمير النصب المنفصل: (فإذا هو إياها). والسماع يؤيد رأيه وفي طليعة السماع القرآن الكريم: قال الله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (الأنبياء 97).

و أما الكسائي فيقبل ضمير النصب المنفصل: (فإذا هو إياها). وحجته لغة أعراب الحطمة الذين يصفهم شوقي ضيف بأنهم ليسوا فصحاء ولا سكان بادية في قوله: " لأنهم [يقصد أعراب الحطمة] ليسوا من الفصحاء المتبدّين في قيعان نجد و تهامة والحجاز ممن يؤخذ عن لسانهم النحو واللغة.

- الفصل بين المضاف و المضاف إليه: يذكر أبو البركات الأنباري أن الكوفيين يميزون الفصل بين المتضايفين، و يذكر احتجاجهم على ذلك بيتا من قول الراجز:

فززجتها بمزجة زجّ القلوص أبي مزاده

فالمضاف في البيت هو: زجّ، والمضاف إليه: أبي مزادة، والمفعول به: القلوص. وتقدير الكلام: زجّ أبي مزادة القلوص. وأما البصريون فلا يميزون الفصل بين المضاف والمضاف إليه، وقد وصف صاحب الإنصاف قياس الكوفيين على هذا البيت بأنه قليل وأنه مجهول القائل، ومن هناك لا يحتجّ به، يقول: " وأما الجواب عن كلمات الكوفيين أن ما أنشدوه فهو مع قلته لا يعرف قائله ولا يجوز الاستشهاد به".

وإذا انتقلنا إلى التعليل فإنه عند البصريين مرتبط أساسا باللغة منها يصدر وإليها يعود، ونسوق مثالا على ذلك تعليل المبرّد البصري لورود لفظة (منفطر) بالتذكير خبرا للفظّة (السماء) المؤنثة وذلك في قول الله تعالى: ﴿السماء منفطر به﴾. (المزمل 18) يعلل ذلك برأي أحد أوائل النحاة وكبارهم الخليل بن أحمد الذي يرى أن (منفطر) ليست لفعل الانفطار، إنما هي وصف للحال التي تكون عليها يوم القيامة، ولو كانت للفعل لوافقت الاسم وقيل: السماء منفطرة. يقول المبرّد: "و قال الخليل في قول الله تعالى: (السماء منفطر به) قال هو كقولك للدجاجة (معضل) المعضل التي نشبت بيضتها في جوفها. ولو كانت للفعل لم يكن إلا منفطرة".

- وأما تعليل الكوفيين فكثيرا ما يوصف بالضعف والاضطراب والخروج عن حقيقة اللغة والجنوح إلى المنطق، ومنه ما يراه الفراء في النون الساكنة التي تليها الباء، فهي عنده نون خفية، وفي ذلك خطأ لأنها ميم في مثل: قنبر وعنبر. ونجد أبا سعيد السيرافي يصرح بتخطئة الفراء في المسألة الخامسة من كتابه: (ما ذكره الكوفيون في الإدغام)، ويقول محقق الكتاب: "تمثل رأي الفراء أن النون الساكنة التي تليها الباء كالعنبر هو نون مخفأة وردّه السيرافي مبينا أنّ الصحيح هو رأي سيبويه في كونها ميمًا.

هذا وإن اختلاف البصريين و الكوفيين في القراءات القرآنية كثير جدا، نختار منه واحدا يتمثل في قبول الفراء الكوفي ثلاثة أوجه إعرابية في إعراب لفظة (غير) في قول الله تعالى: ﴿ما لكم من إله غيره﴾ (الأعراف 59) غير (بالرفع): نعتا للفظّة (إله) باعتبار المحل الإعرابي الذي هو الرفع لأنّ (من) حرف جر زائد نحويا. غير (بالجر) نعتا للفظّة (إله) المحرورة لفظا، غير (بالنصب) بمعنى إلّا. لكنّ البصريين يرفضون توجيه النصب إذا لم يتم الكلام، وهنا لم يتم الكلام لأنّ بعد (غير) ضميرا متصلا مضافا إليه. وفي ذلك يقول الدكتور صالح أمين آغا في كتابه: (التوجيه اللغوي للقراءات القرآنية عند الفراء): "وقد أجاز الكسائي نصب غير كما أجازة الكوفيون في كل موضع يحسن فيه (إلا) تمّ الكلام أو لم يتم، وأجاز ما جاءني غيرك [بالنصب] وعند البصريين لا تكون (غير) منصوبة إذا لم يتم الكلام خلافا للكوفيين فإنهم نصبوها تم الكلام أو لم يتم.